النهار

السبت ٠٤ تشرين الأول ٢٠٠٨ - السنة ٧٦ - العدد ٢٣٤٩٠

في الطريق إلى نوبل السلام

"جدّات ساحة أيار" يرمّمن الذاكرة:
لا شفاء لمجتمع دون الحقيقة والعدالة

القصة قصة مجموعة من النساء في الارجنتين اختفى أبناؤهن وبناتهن بين ١٩٧٦ و١٩٨٣ في ظل ديكتاتورية عسكرية ارتكبت من الفظائع ما أكسبها اسم "الحرب القذرة"، وقصة أطفال اختفوا مع أهلهم أو خُطفوا بعد إخفاء أهلهم أو سُرقوا من أرحام أمهاتهم في معسكرات اعتقال سرية لتوزيعهم "غنائم حرب" على ضباط تلك المرحلة أو تركهم في الساحات لمصير مجهول.

والقصة قصة نضال استثنائي لهذه المجموعة في محاولة العثور على أحفادها وضمان حقهم في استعادة هويتهم الأصلية، وفي الاصرار على البحث عن الحقيقة والعدالة ليس للانتقام، كما تقول، بل لترميم الذاكرة الجماعية التي تعرضت لجرح تاريخي والأهم، ليحاول المجتمع التصالح مع ماضيه.

أكثر من ثلاثين سنة مضت و معركة منظمة "جدّات ساحة أيار" او بالاسبانية "أبويلاس دي بلازا دي مايو" مفتوحة على كل الجبهات الممكنة. ما بدأ عام ١٩٧٧ تجمعاً احتجاجياً للأمهات والجدّات كل يوم خميس في ساحة أيار وسط العاصمة بوينس أيرس قبالة المقر الحكومي لا يزال مستمراً حتى اليوم ليبقي الذاكرة مفتوحة على الحقيقة الضائعة. وما بدأ يومها محاولة لتجميع أية معلومات ممكنة عن الأحفاد صار ملفات موثقة بالشهادات والأدلة الطبية وغيرها وصار دعاوى أمام المحاكم.

أكثر من ثلاثين سنة تمكنت "الجدّات" خلالها من استعادة هوية ٩٥ حفيداً من أصل ٥٠٠ حالة مسجلة وإن يكن هذا العدد لا يعني بالضرورة العدد الكلي للأحفاد المخفيين. واليوم اذ تواصل سعيها للعثور على الباقين، فإنها أيضا تنتظر على اللائحة المصغّرة بأسماء المنظمات المرشحة لنيل جائزة نوبل للسلام ٢٠٠٨ التي ستعلن بعد أيام.

استيلا دي كارلوتو هي احدى الجدّات المؤسِسات لهذه المنظمة ورئيستها منذ ١٩٨٩ بعدما كانت نائبة رئيستها سنوات. التقيتها في نيويورك التي حضرت اليها في مناسبة افتتاح معرض يوثق قضية الأحفاد المخفيين أقيم في الامم المتحدة وتزامن مع افتتاح دورة الجمعية العمومية هذه السنة. ولما سألتها عن هذه الجائزة قالت إن "احتمال نيلها سيكون بالتأكيد اعترافاً مهماً جداً بنضالنا وهذا سيساعدنا كثيراً في بحثنا عن أحفادنا". لكن الحقيقة أن "كل حفيد نستعيده هو مثل جائزة نوبل".

الارجح انه أكثر من ذلك. فالجدة استيلا التي تقارب الثمانين من العمر لا تزال تأمل في العثور على حفيدها. وتقول: "الامهات اللواتي خطفن قتلن عموماً بعد الولادة . ابنتي لاورا أمضت في الاعتقال تسعة أشهر وحفيدي ولد هناك ثم سرق منها بعد ساعات من ولادته. وبعد شهرين قتلت هي".

هذا الطفل وكثيرون مثله ممن صاروا اليوم رجالاً ونساء في الثلاثين من العمر لا يزالون الحافز لعمل "جدات ساحة ايار" وان تكن كثيرات منهن يفارقن الحياة من دون التعرف الى أحفادهن. فكيف نشأت هذه المنظمة وفي أية ظروف عملت والى اين وصلت وأوصلت الأحفاد والأرجنتين؟

قليل من التاريخ. في ٢٤ أذار ١٩٧٦ أطاح الجنرال خورخي رافاييل فيديلا الحكومة الدستورية لماريا استيلا (ايزابيل) مارتينيز دي بيرون واستولى على السلطة. ومع انه كان الانقلاب السادس في الارجنتين منذ ١٩٣٠ فإنه لم يكن أي انقلاب. فقبل تنفيذه لم يتردد فيديلا في القول انه "من أجل ضمان أمن الدولة، كل من يجب أن يموت سيموت". وبعد تنفيذه لم يتأخر دقيقة في اعطاء نموذج عما سيفعله. ارسل جنوده فجر ٢٥ آذار في زيارة الى الزعيم البيروني برناردو ألبرتو، وأمام أعين افراد عائلته، ألقوا به من نافذة منزله في الطبقة السادسة. هكذا ارسى الرعب وسيلة للحكم وارسى حقبة هي الاقبح والاكثر دموية في تاريخ الارجنتين وأدخلت كلمة إخفاء الى القاموس اليومي. كان الاخفاء "علاج" المستبد لكل من صنّفهم "مخربين" سواء أكانوا ناشطين سياسيين أم اشخاصاً اعتقد النظام أنهم يعارضون ما سماه "عملية اعادة التنظيم الوطني" أو شكك في ذلك.

باسم هذه العملية اختفى الالوف من الشباب والشابات عازبين او متزوجين. أمهات او آباء. خطفهم رجال النظام فرادى أو معاً او مع صغارهم او الرضّع. كان بينهم نساء حوامل. وبلغ عدد المخفيين استناداً الى سجلات الارجنتين وما تحفظه المنظمات الدولية ٣٠ الف شخص، لكن ضباطا من تلك المرحلة اعترفوا لاحقا بأن العدد بلغ نحو ٤٥ ألفاً بين مخفي وقتيل.

وعلى رغم الترهيب، بدأ عدد من الامهات الباحثات عن اولادهن حركة احتجاجية شجاعة في "ساحة

أيار" (بلازا دي مايو) للتنبيه الى اختفاء الاولاد والمطالبة بمعرفة مصيرهم. صارت هذه المجموعة تعرف لاحقاً باسم "أمهات ساحة أيار" وقد نالت جوائز دولية أيضاً لنضالها في مجال حقوق الانسان. كان نضالها صعباً للغاية. التجمعات في الاماكن العامة كانت محظورة. أكثر من ثلاثة أشخاص يعني تجمعاً يعرّض أصحابه للاعتقال أو اكثر. لذا كانت الامهات يتجهن الى الساحة واحدة واحدة أو كل اثنتين معاً. لا يتوقفن ولا يتحدثن بل يواصلن الدوران فيها كل خميس وكانت كل أم تضع على رأسها غطاء أبيض رمزاً لفوط الاطفال كتبت عليه اسم من اختفى من أولادها. صار الغطاء رمز التحدي والاصرار على الحقيقة وهو لا يزال على رؤوس الامهات حتى اليوم في الموعد ذاته كل خميس.
أسبوعاً بعد أسبوع ارتفع عدد الامهات . وفي أيلول من ذلك العام انضمت الى المجموعة السيدة اليسيا زوباسنابار التي أخفى النظام ابنها روبرتو وابنتها الصغرى الحامل ايلينا وزوج ابنتها هكتور باراتي. وسرعان ما أسست مع امهات اختفى أولاد هن مع اطفالهن او اختفت بناتهن وهن حوامل جمعية "جدات الأحفاد المخفيين" التي صارت تعرف باسم "جدّات ساحة أيار" واتخذت هذا الاسم رسميا في ١٩٨٠. فقد ادركت هؤلاء الامهات ان البحث عن الأحفاد يتطلب اساليب بحث مختلفة. ذلك ان المخفيين الكبار أبقوا في معسكرات الاعتقال أو قتلوا سريعاً كما تبين لاحقا، اما الاطفال فأعطوا لعائلات مختلفة وأعطوا اسماء مختلفة.
استيلا دي كارلوتو انضمت الى هذه المجموعة مطلع ١٩٧٨ و"كان يجمعنا الخوف وعدم معرفة سبل البحث عن أولادنا وأحفادنا. كانت القيود على الحركة كبيرة جداً وخصوصاً في بوينس أيرس، اما خارج العاصمة، فكانت اللقاءات أكثر امكاناً على رغم القيود. كان علينا ان نتظاهر بأن شيئاً لا يحصل. من كانت تعمل منا استمرت في عملها وكان لدينا نظام حماية ذاتية في التحدث بعضنا الى البعض وفي ترتيب أي اجتماع على انه لقاء اجتماعي. كنا نعرف انهم يلاحقوننا وقد تلقينا تهديدات واختفى عدد من أمهات ساحة ايار".
وفيما كانت الانباء تتسرّب عن قتل المخفيين، كان هناك من أفهم الجدّات أن الأحفاد لن يعودوا. فعندما ألحت اليسيا بالسؤال عن حفيدتها التي عرفت انها ولدت في المعسكر في حزيران ١٩٧٧، قيل لها أن تكف عن المراجعة لأن "الامر انتهى والحفيدة اعطيت لعائلة مهمة". ماتت اليسيا في حزيران الماضي عن ٩٢ عاما من غير ان تجد حفيدتها.
هكذا بدأت الجدّات عمليا بالعمل محقّقات بالوسائل المتاحة في ظل الديكتاتورية. حاولن جمع المعلومات الممكنة من جيران ربما شاهدوا الاطفال عند خطفهم أو من ممرضات وقابلات قانونيات ربما ساعدن في الولادات في المعسكرات. راقبن الاحياء وملاعب المدارس والساحات ودور الايتام علّهن يجدن حفيداً مخفياً. لا نتيجة. ومنذ ١٩٨١ بدأت الجدّات يوسّعن نطاق تحركهن بنقل القضية الى المحافل الدولية للحصول على دعم لفضح فظائع الديكتاتورية.
وكانت عودة الديموقراطية الى الارجنتين عام ١٩٨٣ نقطة تحوّل سمحت بأن يكون عمل "الجدّات" أكثر احترافاً، ونقطة تحول في معرفة جرائم الاستبداد. تبين لاحقاً من شهادات شهود ومن "صحوات ضمير" بعض الجلادين ان غالبية الذين اخفاهم النظام قتلوا بأكثر الوسائل وحشية. كانوا يحرقونهم في أفران او يضعونهم عراة ونصف مخدرين في طائرات عسكرية ثم يلقون بهم في مياه المحيط في ما كان يعرف باسم "رحلات الموت الجوية". وتبين أن الجلادين أبقوا الأمهات الحوامل في معسكرات خاصة حتى موعد الولادة التي غالبا ما كانت تجرى بعملية قيصرية غير ضرورية فيما الام معصوبة العينين ومكممة وموثوقة اليدين والرجلين. وكان المولود يسلخ مباشرة عن أمه التي تقتل فوراً او بعد حين وغالباً ما تأخذه عائلة عسكرية. أما الأطفال الذين خطفوا مع أهلهم فلقوا المصير عينه أو تركوا في الشارع واخذتهم عائلات اخرى. وتبيّن أيضاً أن ثمة اطفالاً أخذهم جيرانهم بعد اختفاء أهلهم ولم يطلعوهم اطلاقاً على ماضيهم وآخرون اخذتهم عائلة الام او الاب ولم تبلغ الطرف الاخر إما جهلا به وإما خوفاً على الطفل.
مخفيون في اي حال: مخفيون قتلهم النظام ولم يعلن ذلك ولم يسلّم جثثهم الى ذويهم. ومخفيون أحياء هم عمليا الاولاد المخطوفون للاولاد المخفيين. وقد تعمّد النظام قطع اي رابط لهؤلاء بأصولهم وإلغاء هويتهم بتغيير اسمائهم الاولى والاخيرة وتزوير شهادات الميلاد بتغيير اليوم والمكان.
أخذت "الجدات" على عاتقهن تصحيح هذا الوضع وانتقلن من جمع المعلومات الاولية الى تحقيقات أكثر علمية وتعقيداً. أجرين تحقيقات في المحاكم المحلية والفيديرالية في كل حالات الموافقة على التبني وفي حالات أولاد مسجلين في فئة "بلا اسم" وفي الدوائر الحكومية عن كل الولادات التي سُجلت بعد انتهاء المدة القانونية للتسجيل. وتقول استيلا: "بعدما تأكدنا طبيا من انه يمكن تحديد نسب الطفل من اجداده، عملنا على انشاء البنك الوطني للمعلومات الجينية وقد أقر البرلمان ذلك في ١٩٨٧ وتأسس مطلع التسعينات. وسمح لنا هذا بايجاد الظروف للتعرف الى أحفادنا حتى بعد مماتنا". ففي البنك عيّنات من دم الاجداد والجدّات لتسهيل اية دراسات مستقبلية ويتوقع ان يعمل في البحث عن الأحفاد حتى ٢٠٥٠ اذا أخذ متوسط الأعمار للافراد.
ومنذ الثمانينات تنشر "الجدّات" اعلانات في صحف محلية قد يقرأها أشخاص يملكون معلومات عن حالات الخطف والاخفاء لكنهم ظلوا صامتين إما لتورطهم في الجريمة وإما خوفا من نتائج البوح بما يعرفون. ومنذ ١٩٩٧ "بدأنا حملات لجذب الشباب من العمر التقريبي لأحفادنا ممن قد تكون لديهم شكوك في هويتهم. وقد

حصلنا على نتائج ايجابية جداً. فهناك من يلاحظ فوارق كثيرة مع "أهله" سواء في اللون او القامة او الشكل أو حتى في عدم الحصول على بعض الأجوبة". وتطلق "الجدات" منذ أواخر التسعينات حملات ليس لدعم عملهن فحسب، بل لاعادة بناء الذاكرة الجماعية يشارك فيها نجوم رياضة وفن.
ولكن كيف تم تحديد العدد ٥٠٠ حفيد وكيف الوصول الى هذا او ذاك من هؤلاء؟ تجيب استيلا: "العدد يستند الى الشكاوى التي تتقدم بها العائلات ولا بد ان تكون ذات صدقية. ونبدأ باعداد الملف. تجميع شهادات فردية ووثائق وصور للاهل والولد اذا امكن. وفي حالات اختفاء الام الحامل لا بد من وثيقة تثبت حملها في حينه او وثيقة الميلاد للولد المخطوف. ونتحرك قضائياً عندما تكتمل لدينا عناصر دعوى".
عمل "الجدّات" ليس معزولا. ففي الطريق نجحن في الدفع إلى تضمين المعاهدة الدولية لحقوق الطفل ثلاثة بنود تتعلق بالحق في الهوية باتت تعرف باسم البنود الارجنتينية وأدمجت لاحقا في الدستور الارجنتيني. كما نجحن عام ١٩٩٢ في دفع الحكومة الى انشاء اللجنة الوطنية للحق في الهوية وهدفها مساعدة الشباب الذين يشككون في هويتهم وعملها مكمل لعمل "الجدّات".
وطوال ٣١ عاما، تقول استيلا، "استطعنا تحديد مواقع ٩٥ حفيداً. بعضهم يعيشون مع عائلاتهم الحقيقية وآخرون لايزالون مع العائلات التي تبنتهم لكنهم على اتصال وثيق بجداتهم الحقيقيات واقاربهم. وفي كلا الحالتين استعاد هؤلاء هويتهم".
أربعة منهم كانوا مع استيلا في نيويورك ولكل منهم قصة تضيء جانبا من جوانب الجريمة التي ارتكبت في حقهم ومعنى استعادتهم هويتهم.
• فيكتوريا التي صارت الان عضواً في البرلمان قالت إنها استعادت هويتها في ٨ تشرين الاول ٢٠٠٤ عندما صدرت نتائج فحص الحمض الريبي النووي الذي اجرته. "يومها عرفت من هي عائلتي. اكتشفت أن أمي اسمها ماريا وكانت في الثانية والعشرين وقد اختفى بعد اختفاء أمي بشهرين. وعرفت من جدتي التي كانت من المجموعة المؤسّسة للمنظمة أن أمي كانت تريد تسميتي فيكتوريا. ويومها استعدت أكثر من إسمي. عرفت أن لي عيني أمي وابتسامة أبي. هذه اشياء مهمة جدا". لكنني "عرفت أكثر من ذلك بكثير. عرفت أن عمي، شقيق والدي، كان أحد الجلادين في المعسكر وكانت له علاقة بخطفي".
وهل شككت يوما في هويتها؟ "اطلاقاً. لم أشكك ولم أبحث عن احد. المنظمة وجدتني".
ربما ساعدت في العثور على فيكتوريا علامة فارقة تركتها أمها في اذنها. "عندما ولدتني امي في المعسكر فتحت اذني ووضعت فيها خيطا أزرق رفيعاً. وكانت هناك سيدة قالت للجدات إنها ارضعت طفلة في اذنها خيط أزرق. وكانت لدي صورة والخيط في أذني".
ولما سألتها عن العائلة التي ربّتها وعلاقتها بها الان أجابت: "الوالد عضو في القوة البحرية. كانت علاقتي بهم جيدة. لا تزال جيدة لكنها مختلفة". ذلك انه "واضح بالنسبة الي ان ما حصل جريمة ارتكبوها. هذه العائلات لم تتبننا. لقد غنمتنا".
• خيمينا قصتها مختلفة. ولدت في أيار ١٩٧٦ أي بعد شهرين على بدء الحكم العسكري وكانت من اوائل الأحفاد الذين استعادوا هويتهم. روت انها كبرت في عائلة كان الوالد فيها شرطياً وقد ابلغتها العائلة انها تبنتها بعدما تخلت أمها عنها. ولكن ذات يوم من ١٩٨٣ و"كنت في السابعة من عمري زارتنا سيدة في المنزل ولما شاهدتها شعرت على الفور بأنني أعرفها. السيدة جاءت تقول إنها جدتي وتطالب بي. كان معها صور شاهدتها ولاحظت الشبه بيني وبينها". لم يكن هناك بعد فحص للحمض الريبي النووي " فانتظرت حتى ١٩٩٤ وكنت الحالة الثانية تخضع له. يومها عرفت من هم أهلي. كانت امي في الثالثة والعشرين من عمرها وأبي في الرابعة والعشرين. كانا شخصين عاديين يدرسان علم النفس وكان لديهما محل صغير يعتاشان منه. وعرفت انه بعد الانقلاب العسكري قرر والدي الانتقال للعيش في اسبانيا، وأنه في شباط ١٩٧٧ كانت امي تعد جوازات السفر وكنت معها. اختفت أمي في دائرة الشرطة واختفيت معها. وفي الوقت عينه خطف أبي من البيت". خيمينا لم تعد ترى العائلة التي ربتها منذ شاهدتها للمرة الاخيرة في المحكمة.
• غبريال اكتفى بالقول إنه اختفى مع أمه عام ١٩٧٦ وانه أجرى فحص الحمض النووي في ٢٠٠٠ وتعرف الى والده وعرف ماضيه وتغيرت حياته كثيرا والان يواصل العمل مع "الجدات"، فيما عرض بدرو جانبا آخر من المشكلة.
• بدرو كان عمره سبعة اشهر عندما خُطف مع امه التي ولدته بعد ١٥ يوماً من خطف والده. "ابي كان محظوظاً لأنه صار سجيناً قانونياً فهذا أبقاه حياً في السجن. أمي لم تكن محظوظة. كان لي أخ بقي في المنزل وقد اخذه اصدقاء والدي الى جدّيه. بدأ ابي يسعى من السجن للعثور عليّ ولما أفرج عنه سافر الى فرنسا. اتصل بالامهات والجدّات في ١٩٩٠ وحتى ٢٠٠٣ لم يجدنني نظراً الى وجود من تعمّد اخفاء المعلومات. ولكن في ٢٠٠٤ اتصل بي قاض ودعاني لاجراء فحص الحمض الريبي النووي. ويومها عرفت أن لي والداً حياً وشقيقاً حياً وأماً مخفية. وعرفت أن جدتي ماتت قبل العثور علي بـ١٤ يوما ".
لم يكن بدرو وحده عندما وجدوه. كان في التاسعة والعشرين من العمر، متزوج وله ابن وابنة وزوجته حامل. "وعندما ولدت ابنتي الثانية سميتها ماغدالينا على اسم امي".

المفجع في قصته، كما يقول، ان الاذى لحق بأربعة أجيال. "ابي التقى ابنه وأحفاده وأولادي استعادوا اسمهم. ماغدالينا هي الوحيدة التي ولدت بهويتها الحقيقية. ولكن على ابني وابنتي الاولى ان يتوقفا عن التعامل مع من كانا يظنان انهما جداهما وأن يبنيا علاقة مع جدهما الحقيقي".

والمفجع أكثر ان "والد" بدرو كان هو نفسه الخاطف. "كان يعمل شرطياً في مركز اعتقال في المنطقة التي كنت اعيش فيها. خطفنا انا وامي. اخذني الى منزله ليربيني مع زوجته وبعد مدة انفصل عنها وبقيت أنا معها. كنت الولد الوحيد لتلك العائلة". وهل لمحت لك الى الحقيقة؟ "كانت تعاملني معاملة جيدة. قالت لي إنها ليست أمي وان امي الحقيقية تخلت عني لكن الوالد هو أبي الفعلي".

ما تحدث عنه الأحفاد هو تماما ما تناضل "الجدات" من اجله: حق الأحفاد في الحقيقة. كل واحد منهم انسان وليس غنيمة حرب، له أهل يحبونه ولم يتخلوا عنه وأهله هم ضحايا الجلادين الذين ربوه. طبعاً هذا لا يعني بالضرورة ان كل العائلات التي "غنمت" الأحفاد اساءت معاملتهم، لكنها مسؤولة عن إخفاء الحقيقة.

استيلا تؤكد مما صار معروفاً عن تلك الحقبة ان النظام الديكتاتوري لم يفرض على أي من هذه العائلات تربية الاولاد. كان الاولاد يُمنحون أحيانا لعائلات لا تنجب أو لأسباب اخرى. والقصص كثيرة: عسكري أخذ ولداً الى زوجته لانها كانت محبطة. شرطي أخذ ولداً لانه كانت لديه ابنة واحدة. شرطي فقد وزوجته ابنتهما الوحيدة قرر ان يعوضها فأخذ ولدين. وهناك حالة لامرأة خطفت مع ولديها وكانت حاملاً وقد ولد الثالث في الأسر. ترك الخاطفون الولدين في ساحتين مختلفتين والثالث تصرّف به العسكر. "تمكنّا من استعادة الولدين من عائلتين مختلفتين وقد عثرنا على الثالث قبل مدة فاجتمعت العائلة للمرة الاولى".

لكن هذا لا يكفي الجدات ولا الأحفاد. استعادة الهوية لا تحقق وحدها العدالة. وهنا عمل القضاء واصرار "الجدّات" عليه. فعودة الحكم الديموقراطي في ١٩٨٣ أدت الى إنشاء اللجنة الوطنية الخاصة بالاشخاص المخفيين والى ملاحقة الضباط المسؤولين. وعلى رغم صدور قوانين بوقف الملاحقات مطلع التسعينات عاد القضاء يأخذ مجراه وفيديلا نفسه قيد الاعتقال المنزلي اليوم اذ يحق له ذلك بموجب القانون وقد تجاوز السبعين من عمره.

وتؤكد استيلا ان الهدف ليس الانتقام بل العدالة. "هذه مطلوبة من أجل ان يشفى المجتمع مما لحق به واليوم كل الذين شاركوا في القمع يحاكمون. حتى "الاهل" الذين ربّوا الأحفاد ولا يزالون احياء يحاكمون في نطاق مسؤولياتهم".

ثلاث ركائز تستند اليها "الجدّات" من أجل ان تشفى ثلاثة اجيال في الارجنتين بل من أجل ان تنجح الارجنتين في طي تلك الصفحة السوداء من تاريخها: الحقيقة والعدالة والذاكرة. وأملها أن يكون نضالها مساهمة جدية في هذا الاتجاه وفي زيادة الوعي في العالم وفي الدول التي عانت الاستبداد أو قد تعانيه انه من دون توفير هذه الركائز يصعب على أي شعب أو مجتمع تعرّض للاذى أن يتصالح مع ماضيه.

سحر بعاصيري

جميع الحقوق محفوظة – © جريدة النهار ٢٠٠٨